وأقول : إن السياق العقلى السطحى الذى ليس من الله ؛ هو الذى يمكن أن يُذكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ؛ بل عَدَل عن هذا إلى المقابل فى المؤمنين ؛ فقال :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

فإذا جاء فى الدنيا بالعذاب للكافرين ؛ ثم جاء فى الآخرة بالثواب للمُتقين ؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ؛ كى نعرف كيف يُحْبَك النظم القرآنى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وكلمة :

﴿ حَتَّىٰ (١١٠) ﴾ [يوسف]

تدل على أن هناك غاية ، وما دامتْ هناك غاية فلا بُدَّ أن بداية ما قد سبقتْها ، ونقول : « أكلتُ السمكة حتى رأسها » . أى : أن البداية كانت أكْل السمكة ، والنهاية هى رأسها .

والبداية التى تسبق :

﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. (١١٠) ﴾ [يوسف]

هى قوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلك إلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وما دام الحقُّ سبحانه قد أرسلهم ؛ فهم قد ضَمنوا النصر ، ولكن النصر أبطأ ؛ فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحمِّل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا المُخْتَبر اختباراً دقيقاً .

ولا بُدّ أن يمر الرسول - الأسْوة لمَنْ معه - ومَنْ يتبعه من بعده بمحن كثيرة ، ومَنْ صبر على المحَن وخرج منها ناجحاً ؛ فهو أهْلٌ لأن يحمل المهمة[(١)] .

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا[(٢)] من قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

إذن : لا بُدَّ من اختبار يُمحِّص . ونحن فى حركة حياتنا نُؤهِّل التلميذ دراسياً ؛ ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نُؤهِّله

---

(١) مثال هذا : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة] .

(٢) خلا الأمر ، يخلو : مضى وسبق . قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر] أى : مضى وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

لنَيْل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم نؤهله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإنْ أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجَهْد .

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتولِّيَ مسئولية العمل الذى يُسند إليه وهو جدير بها ، فما بَالُنا بعملية بَعْث رسول إلى قوم ما ؟

لا بُدَّ إذن من تمحيصه هو ومَنْ يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد إلا المُوقِن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستيئس الرسل ؟

نقول : فَلْنفهم أولاً معنى « استيأس » ؛ وهناك فرق بين « يأس » و «استيأس » ، فـ « يأس » تعنى قطع الأمل من شىء . و « استيأس » تعنى : أنه يُلِحّ على قَطع الأمل .

أى : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومَنْ قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إنْ كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مُسبِّبه الأعلى .

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تَصِلْ به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول : أنا لا تُهمِّنى الأسباب ؛ لأن معى المُسبِّب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجَد بين الملاحدة الكافرين ؛ لأنهم لا يملكون رصيداً إيمانياً ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ؛ وقادر على أن يَخْرِق النواميس .

أما المؤمن فهو يأوى إلى رُكْن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه ، مُسبِّب كل الأسباب ، والقادر على أن يَخْرِق الأسباب .

ولماذا يستيئس الرسل ؟

لأن حرصهم على تعجُّل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلما سأل المؤمنون :

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

فضلاً عن ظَنِّهم أنهم كُذِّبوا ، والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. (١١٠) ﴾ [يوسف]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » و « الباء » منها « كَذَبَ » ، و« كُذِبَ عليه » و « كُذِّب » . والكذب هو القول المخالف للواقع والعاقل هو من يُورِد كلامه على ذِهْنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشد الذى لا يمتلك القدرة على التدبُّر ؛ فينطق الكلام

على عَواهنه[1] ؛ ولا يمرر الكلام على ذهنه ؛ ولذلك يقال عنه « مخرف » .

وقد سبق لنا أن شرحنا الصدق ، وقلنا : إنه تطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، والكذب هو ألاَّ تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع .

ومَنْ يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع ؛ يقال عنه : إنه مُتعمِّد الكذب ، ومَنْ يقول كلاماً بغالبية الظن أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غيره ؛ فهو يكذب دون أن يُحسب كَذبه افتراءً . والإنسان الذى يتوخَّى الدِّقة ينقل الكلام منسوباً إلى مَنْ قاله له ؛ فيقول « أخبرنى فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقول دائماً : يجب أن يُفرِّق العلماء بين كذب المُفْتين ، وكذب الخبر ؛ وكذب المُخْبِر . فالخبر الكاذب مسئول عنه مَنْ تعمَّد الكذب ، أما الناقل للخبر ما دام قد نسبه إلى مَنْ قاله ، فموقفه مختلف .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد لها قراءتين ؛ قراءة هى : «وظنوا أنهم قد كُذبوا » أى : حدَّثهم غيرهم كَذباً ؛ وقراءة ثانية[2] هى : « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » وهى تعنى : أنهم قد

---

(١) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره . وقيل : هو إذا لم يُبلْ أصاب أم أخطأ . وعهن الشىء إذا حضر ، أى : أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل من خطأ وصواب . [لسان العرب - مادة : عهن] .

(٢) هناك قراءة ثالثة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣٦١١/٥) قال : « قرأ مجاهد وحميد : « قد كَذَبوا » بفتح الكاف والذال مُخفَّفاً ، على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضُّل الله عز وجل فى تأخير العذاب » .

ظنُّوا أن ما قيل لهم من كلام عن النصر هو كذب .

ولقائل أن يسأل : كيف يظن الرسل[1] ذلك ؟

وأقول : إن الرسول حين يطلب من قومه الإيمان ؛ يعلم أن ما يُؤكِّد صدْق رسالته هو مجيء النصر ؛ وتمرُّ عليه بعض من الخواطر خوفاً أن يقول المقاتلون الذين معه : « لقد كذب علينا » ؛ لأن الظن إخبار بالراجح .

ولا يخطر على بال الرسل أن الله سبحانه وتعالى ـ معاذ الله ـ قد كَذَبهم وعده ، ولكنهم ظنُّوا أن النصر سيأتيهم بسرعة ؛ وأخذوا بطء مجيء النصر دليلاً على أن النصر لن يأتي .

أو : أنهم خافوا أن يُكذِّبهم الغير .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعلِّم رسله أن النصر سيأتي في الموعد الذي يحدده سبحانه ، ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يَعْجَلُ بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ..(١١٠)﴾ [يوسف]

---

(١) سأل عروةُ بن هشام عائشةَ رضى الله عنها عن قول الله عز وجل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ..(١١٠)﴾ [يوسف] فقال : أكُذِبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم . فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : ﴿وظنُّوا أنَّهم قدْ كُذِبُوا ..(١١٠)﴾ [يوسف] قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت ، فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم كَذَّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٩٥) وأورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦١١) .

وهكذا يأتى النصر بعد الزلزلة الشديدة ؛ فيكون وَقْعه كوَقْع الماء على ذى الغُلَّة[1] الصَّادى ، ولنا أن نتخيل شَوْق العطشان لكوب الماء.

وأيضاً فإن إبطاء النـصر يعطى غروراً للكافرين يجـعلهم يتمادون فى الغرور ، وحين يأتى النصر تتضـاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وأيضاً يتضاعف غَمُّ الكافرين به .

ومجىء النصر للمؤمنين يقتضى وقوع هزيمة للكافرين ؛ لأن تلك هى مشيئة الله الذى يقع بَأْسه وعذابه على الكافرين به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

ونلحظ أن هذه الآيـة جـاءت فى سـورة يوسف ؛ أى : إنْ أردتَ قصـة يوسف وإخوته ؛ فـفى السورة كل القصـة بمَرامـيها وأهدافـها وعظَتها ، أو المهم فى كل قصص الأنبياء .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

ونعلم أن معنى القَصَص مأخوذ من قَصِّ الأثر ؛ وتتبُّعه بلا زيادة أو نقصان .

---

(١) الغلة : شدة العطش وحرارته . وبعير غَالٌّ وغَـلاَّن : عطشان شديد العطش . [لسان العرب ـ مادة : غلل] والصَّدَى : شدة العطش .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

وفى أول السورة قال الحق :

﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

ونعرف أن مادة « العين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جلىّ إلى خفىّ .

والعبْرة فى هذه القصة - قصة يوسف - وكذلك قصص القرآن كلها ؛ نأخذ منها عبْرة من الجلىّ فيها إلى الخَفىّ الذى نواجهه ؛ فلا نفعل الأمور السيئة ؛ ونُقدم على الأمور الطيبة .

وحين نُقبل على العمل الطيّب الذى جاء فى أىّ قصة قرآنية ؛ وحين نبتعد عن العمل السيء الذى جاء خَبرُه فى القصة القرآنية ؛ بذلك نكون قد أحسنّا الفهم عن تلك القصص .

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم فى القَصَص القرآنى ؛ وفى قصة يوسف تحديداً ؛ وهو ينتكس ، فيأخذ الواحد منّا العبرة ، ويبنى حياته على ألاّ يظلم أحداً . وحين يرى الإنسان منا المظلومَ وهو ينتصر ؛ فهو لا يحزن إنْ تعرَّض لظلم ؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء .

وكذلك قولنا « تعبر الرُّؤْيا » أى : تؤوّلها ؛ لأن الرُّؤْيا تأتى رمزية ؛ وتعبرها أى : تشرحها وتنقلها من خفىّ إلى جلىّ ؛ وإيضاح المطلوب منها .

ونَصفُ الدَّمْعة بأنها « عَبْرة » ؛ والحزن المدفون في النفس البشرية تدل عليه الدَّمْعة .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

والعِبْرة قد تمرُّ ، ولكن لا يلتفت إليها إلا العاقل الذي يُمحِّص الأشياء ، أما الذي يمرُّ عليها مُرور الكرام ؛ فهو لا يستفيد منها .

و« أولو الألباب » هم أصحاب العقول الراجحة ، و « الألباب » جمع « لُبّ » . واللب : هو جوهر الشيء المطلوب ؛ والقشْر موجود لصيانة اللُّبّ ، وسُمِّي العقلُ « لُبّاً » لأنه ينثرُ القشور بعيداً ، ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ..(١١١) ﴾ [يوسف]

أي : أن ما جاء على لسانك يا محمد وأنزله الحق وَحْياً عليك ليس حديث كَذِبٍ مُتعمَّد ؛ بل هو الحق الذي يطابق الكتب التي سبقتْه.

ويُقال : « بين يديك » أي : سبقك ؛ فإذا كنت تسير في طابور ؛ فَمَنْ أمامك يُقال له « بين يديك» ، ومَنْ وراءك يُقال له « مَنْ خلفك » .

والقرآن قد جاء ليصدق الكتب التي سبقتْه ؛ وليست هي التي تُصدِّق عليه ؛ لأنه الكتاب المهيمن ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ويضيف الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

فالقرآن يُصدِّق الكتب السابقة ، ويُفصِّل كل شىء ؛ أى : يعطى كل جزئية من الأمر حُكْمها فى جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجْملاً ، بل يجرى تفصيل كل حُكْم بما يناسب أىَّ أمر من أمور البشر .

وفى أعرافنا اليومية نقول : « فلان قام بشراء بذلة تفصيل » . أى : أن مقاساتها مناسبة له تماماً ؛ ومُحْكمة عليه حين يرتديها .

وفى الأمور العقدية نجد - والعياذ بالله - مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة ؛ لأن كل الكائنات الموجودة فى الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض ؛ وإله للنبات ؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شىء ، ويعجز عن شىء آخر ؟

وإنْ قال هؤلاء : « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها » .

نردُّ عليهم : ليست تلك هى الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَماً[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وحين يكون الشركاء مختلفين ؛ فحالُ هذا العبد المملوك لهم يعيش فى ضَنْك وعذاب ؛ أما الرجل المملوك لرجل واحد فحاله يختلف ؛ لأنه يأتمر بأمر واحد ؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله فى الكون ، فنقول له : وهل يُعقل أن كل هذا الكون الدقيق والمُحْكم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفَصِّلَ هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد سوى إله واحد فى الكون ، ونجد القرآن يُفصِّل لنا الأحكام ؛ ويُنزِل لكل مسألة حُكْماً مناسباً لها ؛ فلا ينتقل حُكْم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحْكم والمُتَشابه ؛ والمَثَل هو قول الحق سبحانه .

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (١١٤)﴾ [آل عمران]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/٣٥٤] .

(٢) سلماً : أى ملْكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/٣٢٤] .

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(١٣٣)﴾ [آل عمران]

جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « فى » ؛ لأن كلاً منها مناسبة ومُفصَّلة حَسْب موقعها .

فالمُسَارعة إلى المغفرة تعنى أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهى الغاية التى سيصل إليها ، أما مَنْ يسارع فى الخيرات ؛ فهو يحيا فى الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد فى الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان]

ونجد قوله الحق :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

وواحدة منهما وردتْ فى المصائب التى لها غَرِيم ، والأخرى قد وردتْ فى المصائب التى لا غريم فيها ؛ مثل المرض حيث لا غَرِيم ، ولا خُصومة .

أما إذا ضربنى أحد ؛ أو اعتدى على أحد أبنائى ؛ فهو غريمى وتوجد خصومة ؛ فوجوده أمامى يَهيج الشر فى نفسى ؛ وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣)﴾ [فصلت]

أى : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذى نزلتْ فى مناسبته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق[1] نحن نرزقهم وإياكم .. (٣١) ﴾
[الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم .. (١٥١) ﴾
[الأنعام]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتّسق فى داخلها ، وتَمَّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له ، فقوله :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

يعنى أن الفقر موجود ، والإنسان مُنْشغل برزقه عن رزق ابنه .

أما قوله :

﴿ خشية إملاق .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْف أن يأتى إلى الإنسان ؛ وهو خوف من أمر لم يَطْرأ بعد .

وهكذا نجد فى القرآن تفصيل كل شىء تحتاجونه فى أمر دنياكم وآخرتكم ، وهو تفصيل لكل شىء ليس عندك ؛ وقد قال الهدهد عن ملكة سبأ بلقيس :

﴿ وأوتيت من كل شىء .. (٢٣) ﴾ [النمل]

---

(١) أملق : افتقر بعد غنى ، والإملاق : الفقر . [القاموس القويم ٢/ ٢٣٤] .

وليس معنى هذا أنهـا أوتيت من كل شىء فى هذه الدنيا ، بل هى قد أُوتيَتْ من كل شىء تملكه ، أو يُمكِن أن تملكه فى الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ..(١١١) ﴾ [يوسف]

لا يعنى أن نسأل مثلاً : « كم رغيفاً فى كيلة القمح ؟ » .

وقد حدث أن سـأل واحد الإمام محـمد عبده هذا السـؤال ؛ فجاء بخباز ، وسأله هذا السؤال ؛ فأجـاب الخباز ؛ فقال السائل : ولكنك لم تَأْتِ بالإجابة من القرآن ؟ فقال الإمام محمد عبده : لماذا لا تذكر قوله الحق :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفرِّط فى الكتاب من شىء.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن الهُـدى هو الطـريق المُـؤدى إلى الخـيـر ، وهذا الطريق المؤدى إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثانى : علاج لمَنْ وقع فى المعصية .

وإليك المثال : هَبْ أن أُناساً يعملون الشر ؛ فنردهم عنه ونشفيهم منه ؛ لأنه مرض ، وهو رحمة بمعنى ألاَّ يقعوا فى المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآنى قد نزل وقايةً لمَنْ لم يقع فى المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لِمَنْ وقع فى المعصية .

ويُحدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآنى وقاية وعلاجاً ، فيقول :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

أى : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقىّ أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه ؛ لأنه وضع المنهج الذى يمكنك أن تعود إليه فى كل ما يصون حياتك ، فإنْ كنت مؤمناً بالله ؛ فَخُذ الهدى ، وخُذ الرحمة .

ونسأل الله أن نُعطَى هذا كله .

○ ○ ○


سورة الرعد